

صور التمرد في شعر المتنبّي

د. عمر أحمد الرييحان

جامعة العلوم الإسلامية العالمية، / الأردن

د. عاطف الدويكات

جامعة العلوم الإسلامية العالمية، / الأردن

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة صور التمرد في شعر المتنبّي ومظاهره (الاجتماعية، والدينية، والذاتية، والسياسية، والواقعية) وأسبابه ودوافعه النفسية والاجتماعية والعقائدية، ومناقشة خفايا نفسية المتنبّي وشخصيته الثائرة المتمردة الطموحة، الرافضة للذل والقهر المتعاظمة على الجميع، ودواعي هذه العظمة التي تتميز بها، والجوانب المضيئة أو المعتمة التي أدت إلى هذا التمرد.

المقدمة:

يعد المتنبّي¹ ظاهرة من ظواهر الحياة الأدبية والثقافية في عصره، إذ بلغ غوارب المجد الشعري، وربما لا نبالغ إذا قلنا إنه شاعر العربية الأول، المتقدم على الجميع، بفضل شعره الرصين، وعباراته البليغة، وشخصيته المتمردة الثائرة الرافضة للذل والقهر، المتعالية على زمانه وواقعه.

ولا نريد البحث في حياة أبي الطيب ونسبه، وما أثير حول ذلك من أقوال وما تناقل الناس عنه من الحكايات والنوادر، وغير ذلك مما أشبع بحثاً ودراسة، فلم يجانب ابن رشيّق الحقيقة حين قال عنه: "أنه مالى الدنيا وشاغل الناس" (القيرواني، ر. 2012: ج1، 113) لأن أبا الطيب كان كذلك. وسيتناول هذا البحث أثر نفسيته على شاعريته وحياته وطموحاته وأهدافه المستقبلية

وسعيه الحثيث للوصول إلى هذه الأهداف والمرامي. ويحاول هذا البحث أن شعاع نور، يسلط الضوء على تلك المناطق القاتمة، لسبر أغوار نفسية المتنبي والغوص في مكامن العظمة والسر الخفي لثورته، ومن ثم الإجابة عن تساؤلات تمرده وثورته.

التمرد لغة:

في اللغة التَّمَرَّد: مصدر تَمَرَّدَ، وأصله مَرَدَ. مرد الإنسان مرودا: طغى وجاوز حداً أمثاله أو بلغ غاية يخرج بها عن جملتهم. وعلى الشيء مرن واستمر عليه. وفي التنزيل العزيز (مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) (القرآن الكريم، آية 101: سورة التوبة) ومرد الدابة ساقها سوقا شديداً ومرد الملاح السفينة دفعها بالمُرْدِي، وتمرَّد الغلام على الشيء: مرن عليه واعتاده، وعلى القوم: عصى عنيدا مصرا، وتمرد على الشر: طغى (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية. 1973: ج2، 861) وتمرد: أقبل وعتا؛ وتأويل المروء، أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف، والمارد من الرجال: العاتي الشديد، وأصله من مرءة الجن والشياطين. ومنه حديث شهر رمضان: (وَتُصَفَّدُ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ) (مسلم، م: كتاب الصيام، 2005، 154)، ومرد على الكلام: أي مرن عليه لا يعبأ به. قال تعالى: "ومن أهل المدينة مردوا على النفاق". وقال الفراء: يريد مرنوا عليه وخرجوا، وقال ابن الإعرابي: التناول بالكبر والمعاصي، ومرد على الشر، وتمرده، أي عتا وطفى. والمريد الخبيث المتمرّد والشرير (ابن منظور، ج. 3: 401).

وجهة النظر النفسية في الإبداع والتمرد:

بداية لا يوجد تعريف محدد للتمرد في علم النفس، إلا أن المتداول في فهمه، أنه سلوك تابع لسلوكيات أخرى، كالتقهر أو الكبت أو الاضطراب النفسي

غير المرضي، أو سلوك آخر يؤدي إليه. ومن هنا كان لا بد لهذا البحث من التقديم ولو بشيء بسيط عن الوجهة النفسية في التعامل مع الأدب، ونظرة علم النفس له، واقتراحه بإبداع الأديب والاضطراب النفسي وواقع المجتمع، وذلك من أجل معرفة الدوافع النفسية التي دفعت الأديب لإبداعه، وظهور صور التمرد في أدبه أو شعره.

وتعد نتائج الدراسات والأبحاث النفسية، من أهم الوسائل التي اتخذها النقد الأدبي لتحليل بعض الظواهر الأدبية، "حيث استمرت هذه النتائج في الكشف عن قيمة العمل الأدبي تحليلاً وتفسيراً أو تقويماً" (أبو الرضا، س. 1981: 5). وهذا ما سمي في النقد بالاتجاه النفسي في نقد الشعر أو الأدب، إذ أصبح النقد ينهل من معين الدراسات النفسية في تحليل النصوص وصورها الفنية، وإصاقها بطوابع نفسية، أي تأثيرها على نفسية الأديب.

ولم لا يكون الأمر كذلك، والشعر في نظر أرنو لد "هو أرقى وسيلة لتفسير عصر ما، وذلك بوضع يده على المشكلة الرئيسية للعصر، وهذا ليس تفسيراً لمشكلات المجتمع الاقتصادية أو الاجتماعية، بل هو تفسير لطبيعة الإنسان وحاجاته كما يكشف عنها عصر معين" (أبو الرضا، س. 1981: 10) فهل كان شعر المتنبي منبئاً عن عصره، دالاً على مشكلاته؟ ربما يكون الجواب نعم، فعصر المتنبي عصر تقلبات وتفكك ونهاية، وأقول للدولة العباسية في عصرها الثاني، ومن هنا عدّ المنهج النفسي الأديب المبدع: الشخص الذي "يشبع الحاجة الروحية للمجتمع الذي يعيش فيه، بمعنى أنه لا بد أن يضطلع بمهمة إعادة التوازن النفسي إلى الحقبة التاريخية التي ينتسب إليها." (عبدالستار، إ. 2002: 9) ومعنى هذا أن شعره مواكب لعصره، ملبّأ/

لمتطلبات المتلقي وميوله، أو يعبر عن نبض الزمن الذي يعيش فيه، وهذا ما لم يتأت للمتنبي، إذ كان متمرداً على زمنه وعصره، الذي لم يحقق فيه طموحه وهذا ما ينسجم مع القول "بأن الضغوط الاجتماعية وما يحيط بالفرد في بيئته له أثر على تمرد الإنسان" (غوادرة، ف. 2015: 16) إذ عانى المتنبي هذه الضغوط، فعبّر عنها بقوله:

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال
(المتنبي، أ. 1938: ج 3، 104)

يلجأ الأديب أو الشاعر إلى التعويض عن هذا النقص أو عدم القدرة على تحقيق الذات، أو التكيف مع الواقع، إلى التمرد على هذا الواقع والثورة عليه، فقد أشار (ادلر) إلى مبدأ الشعور بالنقص الذاتي للكائن البشري، وهو ما يدعى بآليات التعويض. "حيث يصبح نقص قوة محرّكة لمشاعر الفنان، وعاملاً لنشاطه الإبداعي، الناتج عن مبدأ قانون التعويض" (أبو الرضا، س. 1981: 48). ومن هنا انطلق المتنبي يوجب الأرض شرقاً وغرباً، من دمشق إلى بغداد إلى مصر ثم خراسان، مستخدماً إبداعه ونشاطه الناتج عن قانون التعويض في تحقيق ذاته، فيمدح هذا، ويهجو ذاك، ويقدم نفسه على الجميع، لا يلوي لنفسه ذراعاً أمام شاعر، أو حاكم أو محكوم.

فأبلغ حاسديّ عليك أنى كَبَاً برقٍ يحاولُ بي لحاقاً
إذا ما النَّاسُ جرَّهم لبيبٌ فإني قد أكلتهم وذاقا
(المتنبي، أ. 1938: ج 3، 34)

فهل ما كان يتعرض له أبو الطيب من قهر وحسد وحرمان. هو مبعث ابداعه وشاعريته؟ إن ما يواجهه الإنسان في طفولته أو على مدى سني حياته له تأثير مباشر في تكوين شخصيته، بل ذهب بعض العلماء للقول إن شخصية الفرد تتأثر بالسنوات الخمس الأولى من حياته" وإذا ما اعترض الإنسان ما

يحول بينه وبين إشباع حاجاته الأساسية من عقبات أو تدخل من قبل الآخرين في شؤونه أو محاولة قمعه أو إحباطه، فإن ذلك سيدفعه نحو التمرد والثورة والميل إلى العدوان والمقاتلة" (غوادرة، ف. 2015: 97) والجميع يعلم أين نشأ المتنبي وفي أي بيئة عاش وتربى.

أما الأمر الثاني الذي يضغط على ذات المبدع ففي المعطيات الاجتماعية للمجتمع الذي يعيش فيه، وما يمنحه هذا المجتمع من اعتراف أو تقدير أدبي أو مادي" (عبدالستار، أ. 2002: 10) وهذا ما عاناه المتنبي في مجتمعه، إذ كان الأكثر تأثيراً في حياته وأدبه، ذلك أنه عاش في مجتمع الشعراء محسوداً محارباً، ولم يعترف له بفضل ولا سبق، أو يشعر بتقدير أو احترام، وما حظوته بالمكاسب المادية لدى الحكام إلا ليعوض عن حسد الحساد واعتراف المجتمع به وتقديره. وقد ظهر هذا المنحى في كثير من عتبه وشكواه من الأمراء والمدحوحين، يقول في هذا الجانب مخاطباً سيف الدولة وعاتباً عليه:

تطيع الحاسدين وأنت مرءُ جُعِلْتُ فداءه وهُمُ فدائي
(المتنبي، أ. 1938: ج1، 102)

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام عند مناقشة ثورة المتنبي وتمرده، وهو الشاعر العبقري، ارتباط هذه العبقرية بالمرض العقلي والسوداوية، والقول بأن كل الشعراء مجانين، إذ "عد لامارتين العبقرية نوعاً من المرض، وأن الرجل العبقري مثل العفاريث قادر على أن يفعل الأشياء الخارقة" (عبدالستار، أ. 2002: 56) وإذا ما ربطنا مثل هذا القول بشخصية المتنبي فلا أظن أن مثل هذا الأمر ينطبق على شخصية أبي الطيب الطامحة إلى المجد والرفعة والشهرة، هذا إذا أغفلنا جنون العظمة الذي لازمه وأوحى له أنه فوق أسوياء

البشر، وأفضل منهم وإن كان بينهم، إذ يختلف معدنه عن معادنهم، جاعلا من هذه الرؤية فكرة مسيطرة على عقله أينما حل وارتحل، يقول:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
(المتنبي، أ. 1938: ج4، 142)

هذه نفسية المتنبي المتعالية الهادرة التي لا تهدأ ولا تركز إلى واقع، يقول (سيلفانو أريتي) في معرض حديثه عن العبقرية والاضطراب: " ليس المريض الوحيد الذي يضر من الامتثال للواقع فالمبدعون أيضا وإلى حد معين يهربون من الأساليب المألوفة في معاشة أحداث العالم وتفسيرها" (عبدالستار، أ. 2002: 71) وما يلزم ذلك من انفعالات تؤدي بهم إلى الهروب من الواقع، وعدم الامتثال له، وهذا ما يتمثل في شخصية أبي الطيب الذي اعتزل مجتمعه ونأى بنفسه عنه، فغدا غريبا منعزلا عن أهله، بعيدا في تفسيره للأمور عن واقعهم، فهم يسهلون الأمور ويفسرونها بسذاجة على غير وجهتها الصحيحة، يقول:

ومن عرف الأيام معرفتي وبالناس روى رمحه غير راحم
ب

فليس بمرحوم إذا ظفروا ولا في الردى الجاري عليه بآثم
(المتنبي، أ. 1938: ج4، 17)

أما هواجس العظمة والشعور بالاضطهاد فهي هواجس زائفة خادعه، تظهر في نظرته للمجتمع بتوجس وخيفة وفقدان للثقة، مما دفعه إلى التعالي عليه والتكبر على ناسه، مدفوعاً بشعوره بالاضطهاد والإقصاء، من هنا ظهرت هواجس العظمة والكبرياء وعلو الهمة، فحساده كثير، إلا أنه لا يأبه بهم، فهم يغرقون في جوفه ويموتون إذا مروا بسمعه يقول:

وما كمد الحساد شيئاً قصدته ولكنّه من يزحم البحر يفرق
(المتنبي، أ. ج 3، 1938: 43)

ويقول في موضع آخر:

فإذا مر بأذني حاسد صار ممن كان حيا فهلك

(المتنبي، أ. ج 3، 1938: 84)

مما تقدم، لا يمكن الجزم بسلامة شخصية المتنبي النفسية، لما ظهر عليها من تمرد وعظمة تصل حد الجنون، ونرجسية عالية واعتداد بالنفس وافتخار بالذات. لم يسبق أن رأينا في أشعار من سبقه، ومما تجدر الإشارة إليه، أنه مقابل هذه المظاهر النفسية غير السوية، لا يمكن الجزم بعدم صحة شخصيته النفسية لما يظهره من تفوق واتزان سلوكي وأخلاقي.

مظاهر صور التمرد عند المتنبي

مما يلتفت النظر، أن هذه المظاهر المتمردة صدرت عن شاعر يعيش في مجتمع إسلامي عربي، جانبه الاتزان العاطفي والنفسي، فراح يلهث وراء طموحه الذي لا تحده حدود، أدى في نهاية المطاف إلى قتله، وإنهاء أسطوريته التي استمرت أكثر من ثلاث وخمسين سنة. وقد تمثلت هذه الصور في خمسة مظاهر نتاولها فيما يلي من صفحات.

التمرد الاجتماعي

ثار المتنبي على كل شيء واجهه في الحياة، خاصا مجتمعه بالتمرد والثورة بشكل مفرط، إذ لم يترك مجالا إلا وثارت نفسه الكبيرة عليه، لما يمتلكه من عاطفة صادقة نحو هدفه المنشود، وعقلا متوقدا لا يهدأ أو ينام " فهو شاعر

تمتزج فيه العاطفة والعقل، العقل يدقق والعاطفة تهول وتبالغ، وقد بالغت نفسه في بعض المعاني، ولكنها مبالغة غير مذمومة (عبدالرحمن، ن. 1977: 235) يقول المتنبي:

وهاجي نفسه من لم يميز كلامي من كلامهم الهراء

تطيع الحاسدين وأنت مرء جعلت فداءهم وهم فدائي

(المتنبي، أ. ج 1، 1938: 97)

يوجه المتنبي خطابه في البيتين السابقين إلى الحسين بن إسحاق التتوخي، إذ يرى أن من لا يميز جميل كلامه من كلام الشعراء الآخرين فكأنه يهجو نفسه وذوقه في عدم تمييز رديء الكلام من حسنه. والمتنبي صاحب الكبرياء والعظمة لا يرى في الشعراء وكلامهم إلا الهراء أمام شخصيته وشعره. لذا تراه في "كل مفاخرة تعج بالتعاضم والتباهي، فهو يبدو فيها مرة محارباً شجاعاً ومرة فيلسوفاً حكيماً ومرة واعظاً رشيداً ومرة وصافاً ساحراً، وكان يرفع هذه النفس فوق نفوس البشر، حتى يعجب بها ويزهو. وذلك لما ركب في طبعه من المزايا وكفاه أنه عاش نبيل الروح. إذ كان يحاسب نفسه على الساعات التي تمر به من غير عز" (محاسني، ز. 1956: 25).

لقد شعر المتنبي منذ صغره بنقص في شخصيته، فكان لهذا الشعور أبلغ الأثر في ثورته على مجتمعه، نتيجة لشعوره بتواضع نسب أبويه "ولولا شعوره بتواضع نسب أبويه لما قنع بالإشارة إلى عشيرته مرات قلائل. وعلى صفة من الإيجاز والتعميم، ولما انفك يقرع الأسماع ويجلجل بذكر آبائه والإشارة بفخامة حسبهم في كل قصيدة" (العقاد، ع. بلا: 62) لا بل يرى بعض النقاد أن المتنبي "يعول على الكسب، ولا يقيم للوراثة وزناً، بل يصرح بأن الأحساب لا تغني عن صاحبها شيئاً إذا لم يكن صاحب الحسب متصفاً بالخلق الذي يصدق نسبة

ويزكيه" (حسين، محمد. 1981: 37) وهذا ما لم نلاحظه في شعر المتنبّي، بل على عكس ذلك، نراه يشرفهم بانتسابهم له، فهل يعقل أن شاعرا ينظر إلى قومه هذه النظرة الفوقية المتعطرسة؟ ولا يفخر إلا بذاته الكبيرة المستعظمة ولا يرى في نفسه إلا العجب والكمال، نفس بعيدة عن النواقص والعيوب مقابل نفوس الآخرين:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

إن أكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
(المتنبّي، أ. ج 2، 1938: 33)

تلك هي نفس المتنبّي المتعالية المشوبة بالاضطراب، وإلا بماذا يمكن أن نفسر هذين البيتين السابقين، لا يمكن تفسير مثل هذا الشعور إلا على أنه تعويض عن مكان نفس الداخلية الشاعرة بالنقص، الناظرة لمرآة تعكس صفة نسبه الوضع، فانقلب ذلك الشعور على مجتمعه وأهله، فامتنهم وصبّ عليهم جام غضبه، ليخرج ذاته من دائرة الغمز الخفي والعلمي الذي لاحقه منذ نشأته في الكوفة، ومن هذا المنطلق، نراه دائم الرغبة في الغربة والترحال، متحملا أخطارها وأهوالها، وإلا " بماذا نبرر هروبه هذا؟ حتى أنه عجز عن دخول الكوفة لوداع جدته الغالية التي خفّ كما يقول إليها مئات الأميال من شمال سورية إلى بغداد، ثم امتنع عن قطع الفراسخ القليلة المتبقية" (التونجي، م. 1975: 17) التي تفصله عنها، وحتى لا نميل كل الميل إلى هذا الرأي؛ فلا بد من إيراد رأي محمود محمد شاكر الذي يرى أن السبب في عدم دخوله الكوفة هو عدااء العلويين له، حيث يقول " هذا إذا ما أغفلنا أمر العلوية والعلويين والشيعة وأتباعهم من المتشيعين وما كان بينهم وبين المتنبّي من عداوة بلغت حد الإرهاصات له ابتغاء قتله والفتك به" (شاكر، م. 1987: 161) وربما

يكون هذا الرأي صحيحاً، إلا أن إغفال المتنبي لهذا الأمر في أشعاره وأقواله جعل منه رأياً لا يركن إليه. ليس هذا حسب، بل عيروه بأنه باع الماء مع أبيه، فلا غرابة في أن يبيع ماء وجهه للناس" (خليفة، ي. بلا: 119) ولا ينكر محمود شاكر هذا الأمر إذ أوردته في معرض حديثه عن نسبه وقصته مع الشريف العلوي في مجلس ضمّ الكثير من الناس وهم يسألونه عن أحوال الكوفة" فسأله المتنبي : كيف خلفت الأسعار بالكوفة؟ فقال: كل راوية برطلي خبز، فأخجله، وقصد بذلك إن يعرض بأن أباه كان سقاءً" (شاكر، م. 1987: 59)، لهذا السبب وغيره من شعوره بوضاعة نسبه، أراد المتنبي الرد عليهم بأقصى النعوت والألفاظ، فما كان منه إلا أن يقول:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث والنجل بعض من نجله
(المتنبي، أ. ج 3، 1938: 279)

ردُّ عام على منتقديه، لم يبين أبو الطيب فيه نسبه، ولا نسب أبيه، مما دعاه إلى هذا الاتجاه الصارخ للفردية والاعتزاز بالنفس (الذات)، فلم يفخر بواحد من عائلته، ولم يذكر في ديوانه أحدا منهم، إذا ما استثنينا جدته التي أشار في بعض أشعاره أنها كفلتها بعد موت أمه وهو صغير (شاكر، م. 1987: 164)، فهي الوحيدة التي رثاها من تلك العائلة، ومع ذلك، قال فيها:

ولو لم تكوني بنت أكرم لكان أباك الضخم كونك لي أما
(المتنبي، أ. ج 4، 1938: 172) والد

ومع أنه رثاها في هذه القصيدة، إلا إنه لم يعلِّ من شأنها إلا لارتباطها به، أي لو قيل لجدته (يا أم أبي الطيب) لكان ذلك نسباً عظيماً لها (الكبي، م. 1992: 44). هذا ما دفعه لإنكار قومه والترفع عليهم، فهو مصدر تشريفهم، والمعدن الثمين الذي يبرق فيهم.

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
(المتنبي، أ. ج 4، 1938: 142)

ثم تتحول هذه النفس الثائرة من دائرة القوم إلى دائرة الآخرين سخطا ونقمه، إذ كانت الحياة العامة من حوله لا تدفع نفسه إلا إلى الانفراد والقلق والتوجس من الآخرين، فلا يطمئن لأحد ولا يرضى بشيء يرتضونه، وقد ذهب طه حسين إلى "أن شعوره بالضعف من ناحية أسرته وأهله الأذنين قد كان العنصر الأول الذي أثر في شخصيته، وبغض إليه الناس وفرض عليه أن يرى حياته بينهم لم تكن كحياة أترابه ورفاقه" (حسين، ط. 2014: 21) كما أن لاغترابه عن المذاهب السياسية الحاكمة دور لم يسلمه إلا إلى الانكفاء على الذات والانطواء على شعره، يحقق به وجوده وينشر فيه أعلامه. يقول:

أذم إلى هذا الزمان أهليه فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغد
(المتنبي، أ. ج 2، 1938: 65)

هاهم أهل زمانه أهل حقارة ودناءة، فأعلمهم واطئ المقام وأكثرهم حزما وغدٌ حقيراً. فما الدوافع النفسية لهذه النقمة؟
لقد عاش المتنبي في جو متناقض القيم والاتجاهات، قلق الأحوال السياسية والاجتماعية فانعكس ذلك على حياته، فشعر بغريه العربي فيه، فرأى "الناس الذين يحملون المثل العليا والعلم والذكاء لا يعيشون عيشة الرافهين، فظل الصراع بين الشر والخير يعتل في نفسه" (شيخ أمين، ب. 2000: 30) ويلح عليه بالسؤال، أيكون خيرا معطاء لهذا المجتمع أم يكون شريرا ناقما عليه؟
أمطُ عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحدٌ فوقِي ولا أحدٌ مثلي
(المتنبي، أ. ج 4، 1938: 206)

وفي موضع آخر ، يرى الناس جميعاً تحت أخمص قدمه، يقول:
واقفاً تحت أخمصيّ قلمي واقفاً تحت أخمصيّ الأنام
من لو رأني ماءً مات من ظمأً ولو مثلت له في النوم لم ينم
(المتنبي، أ. ج 4، 1938: 161/218)

نظرة لا تصدر إلا من إنسان انطوائي الطبع والسلوك، لا يقيم إلا على نفسه
وطموحاتها، ضارباً بعرض الحائط كل القيم الاجتماعية والمثل السائدة في
عصره، متمرداً عليها وعلى ذاته الاجتماعية التي تدعوه إلى حب الناس
وتقديرهم، كونه إنساناً، والإنسان كما يقول ابن خلدون: "مدني بطبعه أي لا
بدء له من الاجتماع" (ابن خلدون، عبدالرحمن، 2009: 46) ، يقول في موضع
آخر :

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم
(المتنبي، أ. ج 4، 1938: 238)

وهذا الأبيات تدل دلالة واضحة على ابتعاد المتنبي عن روح الجماعة والألفة
والانتماء إليها، وحبه للعزلة والانفرادية والانطواء، لا بل إنه ناغم حاقداً، مترفع
على مجتمعه، هازئ من شعرائه ومتقفيه، لا يراهم إلا أعداء مغيظين منه،
حاقدين عليه، يقول:

لساني بنطقي صامت عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغیظ من عاداك من لا تشاكل

(المتنبي، أ. ج 3، 1938: 174)

لم يكتف المتنبي بالتمرد على الآخرين، بل تعداه سائراً في ثورته ضد كل من يشابهه، أو يساويه في غيره في مفارقة أو مبالغة لا تخلو من التمرد على الأدب والآخرين، يقول:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عندهم الأنوار والظلم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

(المتنبي، أ. ج 4، 1938: 63)

التمرد على الدين:

لم يكن تمرد المتنبي محصوراً على المجتمع الذي يعيش فيه، وإنما تهادى في ثورته وتمرده وعنجهيته، فلم يسلم شيء من تمرده. حتى الدين الذي لا يجزؤ أحد بالتمرد أو الثورة عليه، أو المساس به، فدونه حد الحسام. ولكن ماذا عسانا أن نقول أمام شاعر ثائر طامح كالمتنبي! لعنا لا نجانب الحقيقة إن قلنا، إن المتنبي قد عاش صراعاً دينياً نفسياً رهيباً "تجلى هذا الصراع بين الإيمان بالله والكفر به، فما بين يديه من كتب يشده إلى الإيمان بالله والخضوع له. بينما كانت الدعوة القرمطية وثورته النفسانية اللاهبة تشد عقله إلى جانب آخر. تدفعه إلى الجحود والكفر ومخالفة ما تواضع عليه الناس" (شيخ أمين ب. 2000 : 30) فهو مدفوع للتمرد والرفض والثورة دفعا، أوصله ذلك في آخر المطاف إلى التمرد على الذات الإلهية والملائكة والرسل الكرام ورسالاتهم والقيم الإسلامية فما هو يجعل علم مهدوحه (البدر بن عمار) كعلم الرحمن، ولفظه كلفظ الله عز وجل، يقول:

لو كان علمك بالإله مقسماً في الناس ما بعث الإله رسولاً

أو كان لفظك فيهم ما أنزل القرآن والتوراة والإنجيل
(المتنبي، أ.ج3، 1938: 263)

وفي موضع آخر يشرك ممدوحه وهو (البدر بن عمار) بكرم الله عز وجل،
قائلاً:

من يرتجى أحداً لمكرمة إلا الإله وأنت يا بدر
(المتنبي، أ.ج2، 1938: 172)

ونحن نعلم أن حرف الواو العاطف في هذا المقام يفيد المشاركة، ولو
قال، ثم أنت يا بدر، لكان أليق وأقل جدّة، أما أن يجعل ممدوحه بالقدر
نفسه من الرجاء بالمكارم، فهذا شرك ظاهر بالله عز وجل، وتمرد وشطط.
بل تمرد وإنكار للتفرد الإلهي في الكرم والعطاء.

وقد قالوا عنه في غير موضع: "أنه لم يصل ولم يصم ولم يقرأ القرآن
تعبداً، وسواءً أكان مضرباً عن الصلاة والصوم إضراباً تاماً أو جزئياً، فإن
شعره لم يعتن بهما، وليس له تأملات جدية حولهما. ولم يطلعنا كتاب سيرته
على أنه أدى فريضة الحج على الرغم من كثرة أسفاره وتجواله في البلاد
العربية والإسلامية" (عثمان، س. 1969: 22). ويقول في مدح أحدهم، وقد
أراد استكشاف مذهبه، مغالياً في مدحه، يقول:

يا أيها الملك من ذات ذي الملكوت أسمى نور من سما
المصفى جوهراً

نورٌ تظاهر فيك فتكاد تعلم علم ما لن يعلم
لاهوتيّة

أنا مبصر وأظن من كان يحلم بالإله فأحلم
أني نائم (المتنبي، أ.ج3، 1938: 108)

والظن أن الحكاية لم تخرج من قلب سليم، فهذا طبع المتنبي وديده، فليس -
فيما أعتقد- أن هناك استكشافاً للمذهب بقدر ما هو مدح له، ولعل الممدوح
من أصحاب العقيدة الفاطمية، وإلا لماذا كل هذا التبرير لموقفه في البيت الأخير
ويدعي لنفسه في موضع آخر الملكية الخالصة، فيعطف نفسه على الذات
الإلهية في امتلاكه لممدوحه بعد الله، ويمكن وضع هذه الصورة في باب التمرد
على السلطة أيضاً، يقول:

فلم يضرنا معه فقد الأجل إذا بقيت سالماً أبا علي

فالملك لله العزيز ثم لي
(المتنبي، أ.ج3، 1938: 273)

ولا يتورع المتنبي في تمرده "على الإرادة الإلهية بوصفها إرادة شر، حين يرى
عبدا حبشياً (كافور الإخشيدي) يحكم في الخلق، ويملاً الدنيا سطوة وجاها،
وهو الأسود ذو المشفرين المثقوبين، فيكاد يكفر كلما رآه، ويشكك في
عدالة الله سبحانه وتعالى، ويبلغ من تمرده أن يسمى إرادة الله شراً" (سلامة،
ي. 1995: 133) يقول:

قضاء من الله العلي أرادَه ألا ربما كانت إرادته شرا
(المتنبي، أ.ج2، 1938: 115)

وفي موضع آخر يقول:

لم يخلق الرحمن مثل محمد أحدا وطني انه لا يخلق
(المتنبي، أ. ج. 3، 1938: 60)

وقد رأى طه حسين في ذلك مبالغة فاحشة، لا تصدر عن فن خالص أكثر مما تصدر عن فساد الرأي الديني عند الفتى. متأثر بهذه القرطمية التي تتيح للناس من الرأي والقول والعمل ما لم يكن يستباح" (حسين، ط. 2014: 120)

وبالانتقال من التمرد على الذات الإلهية إلى التمرد على أنبياء الله وكتبه وملائكته، نجده لا يلوي لسانه عسبا في تشبيه نفسه بالأنبياء. وربما من هنا جاء حديث النبوة الذي فيه آراء عدة "ولعل مما ساعد على إطلاق لقب المتنبي تسميته بأحمد، وهو اسم الرسول _ صلى الله عليه وسلم - في القرآن وكنيته بأبي الطيب، والطيب هو أحد أبنائه عليه الصلاة والسلام" (الكعبي، م. 1992: 30). وقد قيل أنه ادعى النبوة بعد قوله:

وما مقامي بأرض نخله إلا كمقام المسيح بين اليهود
(المتنبي، أ. ج. 2، 1938: 31)

ويمضي المتنبي في تشبيه نفسه بالأنبياء عليهم السلام، فها هو يشبه نفسه بنبي الله صالح عليه السلام، حيث يقول:

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود
(المتنبي، أ. ج. 2، 1938: 34)

فأين الفطنة في هذا التشبيه، حتى وإن تعاطف معه المتعاطفون، وذهبوا في تبريراتهم كل مذهب، فهي تبريرات مجافية للحقيقة، ومجاملة لشخص المتنبي، وقد ذكر الثعالبي رأيا لابن جني معاصر المتنبي، "وحكى أبو عثمان بن جني

قال: سمعت أبا الطيب يقول إنما لقبى بالمتنبي لقولي: أنا في أمة تداركها الله" (محاسني، ز. 1956: 59) حتى خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وسلم) رسول دينه وقومه، لم يرد ذكره على لسانه إلا مرات قليلة، كانت إحداها أن جعل أكبر معجزاته -عليه السلام- كونه جدا لبعض ممدوحيه" (عثمان، س. 1969: 22) وهذا الممدوح هو (علي الطاهر الفاطمي) الذي يفخر بانتساب الرسول (ص) إليه حيث يقول:

وأبهر آيات التهامي أنه أبوك وإحدى ما لكم من مناقب

(المتنبي، أ. ج. 1، 1938: 212)

وربما يتخذ تمرد على الأنبياء صورة الذم المباشر للمجتمع من خلال التمرد على الأنبياء، يقول في حق سيدنا آدم عليه السلام:

أبوكم آدم سنّ المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

(المتنبي، أ. ج. 4، 1938: 286)

لم يكتف المتنبي بالتمرد على الرسل والأنبياء، بل تعداه إلى الملائكة الكرام، يقول:

فهو أمضى في الروع من ملك الموت وأسرى في ظلمة من خيال

(المتنبي، أ. ج. 3، 1938: 226)

ولا يتورع في موضع آخر من تبرئة نفسه من الإسلام، إذا كان من شخص يشبه ممدوحة أو يدانيه، يقول:

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

(المتنبي، أ. ج. 4، 1938: 93)

ويقول أيضا:

الناس كالعابدين آلهة وعبد كالموحد الله

(المتنبي، أ. ج. 4، 1938: 306)

ومعنى قوله في هذا المقام، أن الناس في خدمتهم لغيره كمن يعبد آلهة من دون الله؛ لأنه الملك على الحقيقة وغيره من الملوك زور. واقتصارهم على خدمته كمن يوحد الله ولا يشرك به شيئاً. ومن صور استخفافه بالمحرمات. أنه يرى طاعة الأمير في شرب الخمر أفضل من طاعة الله، يقول:

وإذا طلبت رضا الأمير بشربها وأخذتها فلقد تركت الأحراما
(المتنبي، أ. ج 4: 1938: 180)

وأما قوله التالي ففيه أقوال:

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما خلق الله وما لم يخلق

محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

(المتنبي، أ. ج 3: 1938: 60)

توقف (الواحدي) متحرجاً عند أبيات أبي الطيب قائلاً: "قوله وما لم يخلق. ليس معناها لا يجوز أن يكون مخلوقاً كذات الباري عز وجل؛ لأنه لو أراد ولم يخلقه، فمما يخلقه بعد؟ وإن كان قد لزمه الكفر باحتقاره خلق الله، وفيهم أنبياءه وملائكته المقربون" (الكعبي، م. 1992: 35) ومهما يكن من مبررات لهذا التمرد والخروج على الدين، إلا أنه لم يصدر عن نفس سوية عامرة بالإيمان، ذلك أنه صريح العبارة، لا مجال فيها للتأويل البلاغي الذي يمكن أن يركن إليه أو يسوغ به هذا التمرد.

التمرد على الذات:

يعد الشعور بالعظمة ظاهره نفسيه واجتماعيه ملازمة للطموح والتمرد، ولا يخرج من دائرة حب الذات. وقد يتحول إلى مصدر قلق واضطراب لها، وهذا ما أدى إلى تفوّل هذا الطموح في نفس المتنبي من خلال تمرده وثورته يقول:

سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم
(المتنبي، أ. ج 4، 1938: 217)

فهو يرى في الألم لذة لنفسه في الوقت الذي يراه الآخرون غاية الألم، وفي هذا اتجاه لنفس (ماسوخية) الطبع، تجنح إلى تعذيب الذات والاعتداء عليها، إذ لا يجد الشاعر راحته ولذته إلا في هذا الفعل. وهو عصاب نفسي يراد منه قهر الذات والتغلب على نزعاتها، يقول في موضع آخر:

وأصدى فلا أبدي إلى الماء وللشمس فوق اليعملات لعاب
حاجة (المتنبي، أ. ج 1، 1938: 221)

فما هذه النفس التي يموت صاحبها ظمأ في حرٍّ خارجي وداخلي. ولا تبدي حاجة إلى الماء؟ ولماذا هذا التحدي لها؟ هل هو تجمل بالصبر على العطش، أم مخالفة لها وإذلال لطموحاته ومرادها الذي ضاقت به. ولم تعد تحمله. ويقول في موضع آخر:

إن لم أدرك على الأرماع فلا دُعيت ابنَ أمّ المجدر والكرم
سائلة (المتنبي، أ. ج 4، 1938: 120)

والمعهد أن "لنفس حريتها تجاه الجسم تشده إلى مطامحها وتتعبه في مرامها وقد تخلفه وراءها ضعيفا وهي قوية" (عثمان، س. 1969: 61) إنها نفس المتنبي التي جبلت على الطموح والعظمة. فلم يعد جسمه قادرا على التحمل. وهي التي

أدخلته غياهب السجن، ولكنها في كل مرة تنتفض من جديد وتتمرد على صاحبها وعلى كل شيء، يقول وهو في سجنه:
كن أيها السجن كيف شئت وطئت للموت نفس معترف
فقد

لو كان سكناي فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف
(المتنبّي، أ. ج 3، 1938: 18)

والأمر اللافت للنظر، تلك الازدواجية (الانقسام) في شخصيته، إذ نرى واحدة فخورة طمّاحة، ترفع صاحبها إلى أعلى عليين، وثانية راغبة في التكبسب والاستجداء، تنزل بهذا الطموح إلى أسفل السافلين (التونجي، م. 2000: 52) مما يدل على أنه كان يعيش وهما لم تدركه نفسه، إلا بعد عودته من رحلته إلى بلاط كافور، حين أدرك أن الفتى العربي غريب الوجه واليد واللسان.
وفي موضع آخر نرى مدى هوان نفسه عليه من أجل ممدوحه يقول:
ولو فارقت نفسي إليك لقلت أصابت غير مذمومة العهد
حياته

ما الشوق مقتنعا مني بذا حتى أكون بلا قلب ولا كبد
(المتنبّي، أ. ج 2، 1938: 122 114) الكمد

مثل هذا الكلام البليغ لا يصدر إلا عن نفس قد أضناها الوهم في معانقة هدفها الأسمى، وتحقيق طموحها المرجو، وإن "هذه الزفرات الحارقة التي تنطلق من صدر يemor بالثورة على هذا الدهر، لا تقنعنا بأحقية هذا الثائر في ثورته، وهو الفقير المعدم الذي يرحل إلى ممدوحه ممتطيا صهوة راحلتيه الفقر والأدب" (سلامة، ي. 1995: 74) فكيف به يتناول في طموحه على كل شيء، حتى نفسه لم تطلق هذا الطموح؛ لأنه ولّد لديها فصاماً ووهما لم تستطع الفكّك منه، حتى سالت على أسنة الرماح.

التمرد على السلطة :

يرى المتنبّع لتتقل المتنبّي بين بلاطات الأمراء والولاة والحكام مدى سخطه وامتعاظه منهم. فلا يظن ظاناً أن شاعراً كالمتنبّي بطموحه الكبير يرضى أن يكون أحد رعاياهم؛ لأنه لا يرى نفسه إلا الأمير والملك والسلطان. وما خبره مع ابن العميد بسر. فقد ذكر "أن عضد الدولة قد طلبه وهو عند ابن العميد فقال: مالي وللدليم؟ فقال ابن العميد: عضد الدولة أفضل مني. ويصلك بأضعاف ما وصلتك به؟ فأجاب: إنني ملقى من هؤلاء الملوك. أقصد الواحد بعد الواحد، وأملكهم شيئاً يبقى ببقاء النيرين. ويعطونني عرضاً فانياً، ولي ضجرات واختيارات فيعوقوني عن مرادي فاحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه" (الكعبي، م. 1992: 47). ويتمثل تمرده على السلطان في وجوه عدة، نطالع منها مدحه لنفسه في معرض مدحه لهم يقول في قصيدة يمدح بها كافور في بناء دار له على البركة، يقول:

وأنا منك لا يهنئ عضو بالمرسات سائر الأعضاء

فارم بي ما أردت فأني أسد القلب آدمي الرّواء

وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يرى من الشعراء

(المتنبّي، أ. ج1، 1938: 112)

وله في الملوك قول تشعر من خلاله مدى سخطه عليهم. واشتمّزازه من أفعالهم ومعاملتهم له، إذ يقول "الملوك قرود يشبه بعضهم بعضاً، لا على الجودة يعطون" (الكعبي، م. 1992: 48) فالملوك عنده قرود بصور آدمية، لا يفقهون جميل الكلام من رديئة، ولا يميزون حسنه من رديئة، وهذا مما يقع في باب

المسكوت عنه في أدب المتنبي، هذا إذا ما عرفنا أن أغلبهم ليسوا عربا. وهو من بواعث سخط المتنبي وثورته وتمرده عليهم.

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكهم عجم

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم
(المتنبي، أ. ج4، 1938: 133)

ويقول في موضع آخر:

ميعاد كل رقيق الشفرتين ومن عصا من ملوك العرب والعجم
غدا (المتنبي، أ. ج4، 1938: 121)

وقد أغضب هذا البيت الإخشيدي القائم بالأمر وألقى به في السجن (خليفة، ي. بلا: 124)؛ لأن في ذلك دعوة صريحة للثورة والخروج على السلطان. هذا هو المتنبي الذي لا يلوي لنفسه الطامحة ذرعا أمام أي شخص. فيراها فوق الملوك والبشر وهو أحق منهم بالولاية والحكم في نظرة عنصرية واضحة "فالخليفة عربي، والأرض عربية واللسان عربي، وكل شيء ينطق بالعربية إلا أن الفعال فارسية أو تركية أو رومية. فكان ذلك مدعاة لقوله:

وإن عراك الشك في نفسه بحالة فأنظر إلى جنسه
(المتنبي، أ. ج2، 1938: 122)

وفي حديثه (ما أبتغي جلّ أن يسمى) فما هو الذي جلّ أن يسمى؟ إنه لا يعدو عن ادعائه النبوة، أو طلبه الخلافة، أو على الأقل الإمارة. ولم لا؟ "وهو الذي لا يرى في الموالي إلا عبيدا تحكم البلاد، وتقوم على الولاية والخلافة، فهل العبيد أجدر منه، وأكثر كفاءة وأسمى وأشد همة واستحقاقا" (العقاد، ع. بلا: 50) ربما نلتمس لأبي الطيب العذر في تمرد في هذا الجانب، إذ ما عرفنا أنه عانى ويعاني من هؤلاء الحكام، الذين ضاقوا ذرعا به وبطموحه

غير المحدود، وربما لأنه كان يحرض على الثورة عليهم، فما هو يخاطب أهل مصر في هجاء كافور الإخشيدي قائلاً:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفني العناقيد

لا تشتتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
(المتنبي، أ. ج. 4، 1938: 102)

إلا أن المعايين لعصر الخلافة في زمن المتنبي، يرى العجب العجائب في كثرة أبناء الجواري والإماء "إذ سقط من الحساب دم الأمهات وثبت دم الآباء، ولم يعد أهل هذا الزمان وما تلاه يقيمون وزناً لدعوى النسب والأصالة في العروبة، وإن كانوا يجلبون آل البيت النبوي" (محاسني، ز. 1956: 144)

أما السبب الآخر في تمرد المتنبي على السلطان، فيراه طه حسين في رحلته إلى البادية التي نفعته في ناحيتين (و قصد القرمطية واللغة) مستشهداً ببيتين من شعره في هذه الناحية وهما:

إلى أي حين أنت في زي محرم وحتى متى في شقوة وإلى كم

وإلا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاس الذل غير مكرم
(المتنبي، أ. ج. 4، 1938: 112)

ومن أغرب قصص شعوره بالعظمة والفخار، ما حصل بينه وبين القاسم طاهر العلوي، حيث أورد علي بن القاسم الكاتب قال: " كنت حاضراً هذا المجلس فما رأيت ولا سمعت أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب، فإني قد رأيت هذا الشريف قد أجلسه في مجلسه، وجلس بين يديه فأنشده القصيدة" (الكعبي، م. 1992: 50). التي يمدحه بها، وأي مدح

هذا وهو يضع نفسه فوق ممدوحه مكاناً ومنزلة. ونختم الحديث في هذا المجال من تمرد المتنبي بيتين يصف فيهما شعره في السلطان. فيرى في الأول أن الله قد عدل بينه وبين ممدوحه، فقضى للمتنبي بحسن اللفظ، وللممدوح بحسن المدح. وفي الثاني يشبه شعره بالدر الذي يعطيه الممدوح للشاعر. والشاعر هو الذي ينظمه. حيث يقول:

عدل الرحمن فيه بيننا فقضى باللفظ لي والحمد لك

لك الحمد في الدر الذي لي فإنك معطيه وأني ناظم
لفظه (المتنبي، أ. ج. 3، 1938: 84)

التمرد على الدهر:

عجيب أمر المتنبي كل العجب. فهو لم يترك مجالا ولا شيئاً من أشياء الحياة إلا وجعله عدواً له، أو غير مطاوع له في تحقيق أهدافه وآماله. وإن الشعور بالعظمة الذي يمارسه أبو الطيب على كل من يواجهه من أعداء مزعومين أو موهومين ممن وقعوا فرائس سهلة لهذا الحمام، إنما هو عدم توافق اجتماعي عاشه أبو الطيب، حتى الدهر كان أحد فرائسه ومواجهاته، إذ لا إرادة للدهر أمام أبي الطيب؛ لأنه يطلب منه أن يتركه بحاله، فهو قادر على مواجهته وقهره، يقول:

ما أجدر الأيام والليالي بأن تقول ماله ومالي
(المتنبي، أ. ج. 4، 1938: 107)

وفي موضع آخر، لا يرى في الدهر إلا خبث الصعبة، يقول:
وأحسب أنني لو هويت لفارقت الدهر أخبث صاحب
فراقكم (المتنبي، أ. ج. 1، 1938: 194)

ويقول في موضع آخر من الديوان معرّضاً بالزمن ومعرفة به أكثر من الأيام نفسها، فهي لا تسع علمه بأمورها، ولا تحسن أن تكتب ما يملي عليها من علمه ومعرفة، يقول:

وما تسمع الأزمان علمي ولا تحسن الأيام تكتب ما أملي
بأمرها (المتنبي، أ. ج. 3، 1938: 131)

والزمان كما نعلم مجرى الكون وسنة الله في خلقه، والنظام الذي ارتضاه للعالم، ولا غرابه في تحريم سب الدهر، إلا أن المتنبي غرق في ذمه والنيل منه، فهل هو قوة خارجة على إرادة الله كافرة، " فاستباح لنفسه عداوتها أم ماذا؟" (عثمان س. 1969: 50) أسئلة كثيرة تستلزم توضيح تمرده على الدهر؛ فها هو يقبح وجه الزمان، ويجعله قبحاً لكل شيء، ويلبس كل شيء قبيح برقعاً منه؟

قبحاً لوجهك يا زمان فإنه وجه له من كل قبح برقع
(المتنبي، أ. ج. 3، 1938: 14)

كيف لا والدهر لم يحقق من أمانيه شيئاً، ولم تطاوع أشرعته رياح المتنبي، فنجد في موضع آخر يقول:

ولو برز الزمان إليّ شخصاً لخضب شعر مفرقة حسامي

وما بلغت مشيئتها الليالي ولا سارت وفي يدها زمامي
(المتنبي، أ. ج. 4، 1938: 163)

والحقيقة أن المقصود بدم الدهر والتمرد عليه في هذا المقام، ليس الدهر بصفته الزمنية الفيزيائية، وإنما القوى الإنسانية التي ينعكس فعل الزمان عليها، فهي "جزء منه لا يتجزأ، فذمها يقترن بدمه، والحديث هنا يختلط بالحديث عنه وإن كان لها شيء من الاستقلال المحلي ضمن تياره، يظهر عندما

يشكو إلى الزمان أهله ويتحسر؛ لأن الإنسان يركبُ الأسنة في قناة الزمان" (عثمان، س. 1969: 53). وها هو الدهر يردد قصائده وينشد شعره، يقول:
وما الدهر إلا من رواة إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
قلائدي

ودع كل صوت غير أنا الصائح المحكي والآخر الصدى
صوتي فإنني (المتنبّي، أ. ج 2، 1938: 10)

كما أنه يتحدى صروف الدهر وأهواله، فيلقى الحوادث بنفس تحتقر
الخطوب الجليلة وتستصغر الرزايا الكثيرة، يقول:
وإنّا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
(المتنبّي، أ. ج 3، 1938: 169)

وهذه سهام الدهر، لا تدرك مرادها منه؛ لأنها تقصر ولا تصل إلى قلبه،
فلا تجد لها موزعا فيه للإصابة، فتتكسر على النّصال التي سبقتها، ذلك أن
النصل يأتي على نصل قبله، فلا يستطيع الإصابة، كأننا به يتحدى حوادث
الدهر ومصائبه التي لم تستطيع أن تفت في عضده، أو ترده عن طموحه
وآماله، يقول:

فصرت إذا أصابتنّي سهام تكسرت النّصال على النّصال
(المتنبّي، أ. ج 3، 1938: 104)

ويبقى المتنبّي متمردا على الدهر رافضا ما يصنعه به، منكر قدرته
وسطوته عليه، وما يغيّره في جسمه وشكله، إذ يرى في الشيب شكلا من
تقلبات الدهر، أما النفس فهي شابه قويه، لم يستطع النيل منها أو تغيير
ملامحها، وإن تغيّرت ملامح جسمه، يقول:

وفيّ الجسم نفس لا تشيب
ولو أن ما في الوجه منه حراب
بشيبه

يغيّر مني الدهر ما شاء
وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب
غيرها (المتنبّي، أ.ج. 1, 1938: 221)

أسباب تمرد ودوافعه:

لا يمكننا أن نفسر سلوك التمرد الذي يقوم به أي فرد على أنه سلوك عابر وليد لحظته؛ وإنما لا بد أن يكون له مسببات داخلية وخارجية متراكمة، تعرض لها عبر فتره زمنيه معينه، تدفع به لإظهارها بوجوه متنوعة، يمكن أن تكون لفظية أو سلوكيات عدوانية عملية، أو أي شكل آخر، كالانطواء والنقمة والحسد، وغير ذلك من السلوكات المعبرة عن الذات المتمردة.

فلا بد للتمرد من أسباب ودوافع تظهره إلى العلن، وهي دوافع وأسباب أما أن تكون نفسية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو أية جوانب حياتية أخرى، والسؤال الذي يطرح بالحاج، ما هي أسباب تمرد المتنبّي ودوافعه؟ والجواب الحاضر لهذا السؤال، أن أسبابا عدة قد أثرت في حياة المتنبّي، وتداخل بعضها مع بعض الآخر لتكوين شخصيته الثائرة المتمردة، نوردّها في ما يلي:

1- أسباب شخصية:

وتتمثل في مجموعة العوامل التي لازمت حياة المتنبّي في طفولته من فقر وعوز ووضاعة نسب، ذلك أنه عاش حياة فقر وعوز وعري، إذ عمل أبوه سقاءً في الكوفة، لا يجد من قوت يومه إلا الكفاف، فعاش طفولة بائسة ينقصها الكثير من متع الحياة وملذاتها "ولست أعلم حياة ملئت بالجهد من أولها إلى آخرها مثل حياة المتنبّي، فقد توفي أبوه فقيراً، فضرب أبو الطيب في مناكب

الشام التماسا للرزق، وجال في البوادي والحوضر، ولم يكن له من المطايا إلا النعل والخف، ولا من اللباس إلا القطن الخشن" (العقاد، ع. بلا: 43) أما نسبه، فكان من أكثر دوافع تمردّه على الآخرين، أتى كردة فعل للدفاع عن نفسه ضد الخصوم، وهو ما يسمى (بالميكانيزمات الدفاعية) التي يستخدمها الفرد لحماية النفس، وإثبات جدارته ونسبه الأصيل، وحين تمكن المتنبّي من الشعر وعلا كعبه فيه، وذاع صيته، هجا من يعيبه في أصله، موضحاً أنه على نباهة ذكره ومجيد فعله جزء صغير من أبيه:

أنا من بعضه يفوق أبا الباحث والنجل بعض من نجله
(المتنبّي، أ. ج. 4، 1938: 97)

ويروي الخطيب البغدادي عن علي بن عبدالمحسن التتوخي عن أبيه قال: "سالت المتنبّي عن نسبه فما أعترف لي به، وقال: أنا رجل أخبط القبائل وأطوي البراري، ومتى انتسبت إلى قبيلة لم آمن أن تأخذني بعض العرب بطائلة بينها وبين تلك القبيلة، وهذا دليل على أن المتنبّي لم يكن ذا نسب نابه، ولذلك لم يفخر إلا بنفسه" (الكعبي، م. 1992: 20) أما محمود محمد شاكر فإنه يرى أن المتنبّي صاحب نسب عظيم أخفاه لأمر سياسي تخص العلويين، إذ يذكر رواية ابن عساكر عن أبي الحسن الربيعي صاحب المتنبّي حيث يقول: "الذي أعرفه من نسب المتنبّي، أنه أحمد بن الحسين بن مرة بن عبدالجبار الجعفي، وكان مولده بالكوفة، وأرضعته امرأة علوية من آل عبيدالله" (شاكر، محمود. 1987: 55) وكان هذا في معرض رده على طه حسين في الحديث عن ضعف نسب المتنبّي، ومهما يكن من أمر: فإن هذه القضية قد ألفت على أبي الطيب إلحاحاً شديداً، ودعته إلى كره المجتمع والنقمة عليه، وعدم الاطمئنان له، ومن هنا لم نجده يحفل بالناس أو يذكرهم في أشعاره بخير، بل كان دائم النقمة والذم والقدح فيهم.

2- أسباب نفسية:

لقد كان المتنبّي شاباً قوياً الحس، رقيق الشعور، متدفق العاطفة، ممسكاً بناصية اللغة، وهذا ما يفسر غزاره إنتاجه الشعري، ورصانة لغته، إلا أنه عنيف الطبع حاد المزاج، يقدر مضايقة الخصوم له، ليزداد عنفاً وحدةً ضد المجتمع، وعاداته وتقاليده، متعالياً عليه، ناظراً له بالسخرية والاستهزاء، وربما يوصلنا ذلك إلى الجزم بأنه مصاب (بالبرونوياً) أي جنون العظمة، ذلك أن أعراض هذا المرض ومظاهره النفسية قريبة جداً من صفات المتنبّي، إن لم تكن مطابقة لسلوكاته، حيث الاعتداد بالنفس، والاحتقار لمن يعارضه، وادعاءه القوة والسيطرة والعلم والنبوة، ومن هنا اتخذ لنفسه هوية معينة كيّف نفسه معها، وربما نعيد تمرده إلى نقص ما، لازمه منذ طفولته " ونحن لا ندري عن هذا النقص، أهو نقص النسب؟ أم نقص المال؟ أم نقص الأسرة الحنون؟ أم نقص المجتمع الحامي؟ أم ماذا؟ فأراد المتنبّي التعويض " (شيخ أمين، ب. 2000: 31) عنه بهذا الشعر الذي يكاد يطير به سموّاً، ولا يهبط به أو يحطه أرضاً، فكانت هذه العظمة الجامحة نحو غوارب المجد، يعوض بها نواقصه التي تعتلج في أعماق عقله الباطن الذي يلح عليه بالتمرد وعدم الوقوف عند حدود الواقع الذي يعيده إلى ماضيه، وبالتالي إلى نقصه الذي لا يريد أن يعود إليه أو يراه الناس فيه.

وقد يكون هذا التمرد نتيجة طاقة مكبوتة، عبّر عنها بهذا السلوك العدواني نحو المجتمع الذي لم يقدر شخصيته، بل راح يكيّل إليه التهم بدل احتضانه ورعايته وتقدير موهبته، إذ لم يكن ذا أهمية في قومه وأهله، وإذا ما استثنينا علاقته الحميمة بجده، فلا نجد من أهله من له علاقة به، أو ذكره في شعره، وربما تعود ثورته إلى أسباب مادية من فقر وعوز، أو إلى أسباب اجتماعية

واقتصادية، جعلت منه إنساناً متشائماً، ينظر إلى مستقبله بالسخط والشور قبل أن ينظر إلى حاضره هذه النظرة الشوفانية المتعالية.

3- أسباب دينية (عقائديه):

لا شك فيما ذهب إليه بعض المؤرخين من ادعائه النبوة، ومن هنا جاءت تسميته بالمتنبي ولكن في الأمر وجهة نظر" فربما أن المتنبي لكونه غير نبي على الحقيقة ولا المجاز ولا حتى بالادعاء، لا نراه يستغفر للناس، أو يستشفع لهم، أو يتسامح معهم، بل نراه بالعكس سيء الظن بهم جميعاً، كثير السخط عليهم" (الكعبي، م. 1992: 31)، فكيف يكون نبياً لهم، يطيعون أمره ويمثلون توجيهه وإرشاده، والأمر لا يعدو كونه طموحاً نبوياً لم يتحقق، وادعاء لم يصدقه أحد، دفعه إلى التمرد والثورة على القيم الدينية والأخلاق الإسلامية والعبادات، وغير ذلك من الرموز الدينية التي لا يسمح بالاعتداء عليها.

ومن الأسباب الدافعة لتمرده، والتي لا يمكن تجاهلها، قضائه وقتاً ليس بالقليل بين الشيعة والقرامطة في الكوفة والبادية، إذ أثر ذلك في نفسيته تأثيراً بالغاً، تشرب أفكارهم وعقائدهم الباطنية الدموية فراح ينافح عنها ويحض عليها من طرف خفي وإلا بماذا نفسر إرسال أبيه له إلى الكتاب "رجل فقير يرسل ابنه إلى حلق الدرس، أليس بحاجة إلى ولده ليعينه على كسب خبز يومه؟ بدلاً من تدريسه في كتاب لا يدرس فيه إلا أبناء الأثرياء، أم في الأمر سر؟ إن في الأمر قرمطية لا ترفع رأساً" (شيخ أمين ب. 2000: 18) وإذا ما عرفنا أن أبا الطيب لم يصل ولم يصم ولم يحج مع كثرة أسفاره ورحلاته، فليس في الأمر غرابه أن تجده لم يقرأ القرآن تعبدًا، يحب الدماء والقتل والفتك بالناس دون رحمة، أو أدنى شفقة، ذلك أن دوافعه الدموية منطلقة من معتقد

قرمطي خالص. كما أنه لم يتورع في تشبيه نفسه بالرسول، وامتهان العبادات، والتقليل من شأن المحرمات. كل ذلك يعود إلى ضعف في اعتقاد أبي الطيب. وقلة إيمانه، وقد أشار شراح ديوانه إلى مثل هذه العبارات، مما لا يدع مجالاً للشك في تمرده على الدين وعدم احتفائه أو التزامه بقيمه وأأسسه.

4- أسباب حضارية مجتمعية:

أو ما يمكن تسميته أسباب وعيوب مجتمع عصره الذي عاش فيه، فما حفل به القرن الرابع من اضطرابات سياسية وانقسامات وثورات وضعف للخلافة العباسية، وتسلب الأعاجم على العرب، وفساد الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، كلها أسباب دفعت المتنبي للتمرد والخروج على مجتمع عصره، وما سبب ادعاء المتنبي النبوة إلا إرهابات هذه الأوضاع التي تردى فيها موقع الإنسان العربي أمام الأعراق الأخرى في الدولة الإسلامية، ومن هنا نجدد يكثّر "من تشبيه غربته في قومه، وكذلك فنه في الحياة الاجتماعية العامة بغربة الأنبياء والمرسلين" (الكعبي، م. 1992: 31) وما قصد بذلك إلا العرب الذين استكانوا وضعفوا واستسلموا للأمر الواقع في تلك الحقبة من الزمن.

عاش المتنبي في عصر مليء بالمتناقضات، فالأرض عربية وناسها عرب، واللغة عربية والحاكم الفعلي أعجمي "وفي هذا الجو الكوفي المفعم بهذه المتناقضات السياسية والدينية والجنسية والمذهبية والثقافية والاقتصادية ولد المتنبي سنة 303هـ" (شيخ أمين ب. 2000: 16)، شهد ضياع الإنسان العربي والقيم العربية في مجتمع يعج بالعربية، ولد المتنبي وولدت معه عروبوته، غريب في نسبه، غريب في ثقافته وطموحه، غريب في معتقده، فأين إرث الأجداد؟ وأين تلك الأمجاد

التي سطرها أولئك الصناديد من العرب الأقحاح، لقد سُرقَ كل مجد وكل إنجاز. ليصبح العربي غريب هذا الزمان.

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

(المتنبي، أ.ج.4، 1938: 205)

فالفتي أي فتى. والعربي أي عربي. والغربة أي غربة كانت؟ إنها غربة السحنة والملامح والبناء والعطاء والحروف واللغة، ذلك الهاجس الشعري الملازم له، وقد يكون الاغتراب اللغوي مع رمزيته القومية الواضحة هو ما قصده المتنبي بغربته. أما بالنسبة لحال الخلافة فقد كانت على أسوأ حال، إذ كان الخليفة العباسي لا يملك من أمر الدولة شيئاً، فهو خليفة صوري، ومقاليد الحكم في أيدي الأعاجم من ترك وفرنس وروم، وغيرهم من الأجناس التي دخلت الإسلام، يقول زكي محاسني: "ومن الأدلة الواضحة على اضطراب السياسة في هذا العصر، وما كانت عليه الخلافة ببغداد، ما أتى من خبر أبي حامد الإسفرايني قاضيهما الذي عاش أواخر القرن الرابع الهجري، وعاصر المتنبي، إذ كان يتهيبه الخليفة ويحذره، وقد تجاسر يوماً فكتب إليه متوعداً أنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك، فمن هذه العبارة يتبين مقدار ما كان عليه الخلفاء من ضعف" (محاسني، ز. 1956: 7) في هذه الأحوال المتردية الهزيلة للدولة العباسية، عاش المتنبي يعاني وحدته وغربته العربية، وما وجد ضالته إلا في بلاط سيف الدولة الأمير العربي، الذي يقارع الروم على الثغور، وينافح عن المتبقي من شرف العرب، فبرز الخطاب الجماعي العربي في شعره بدل الفردية الذاتية، بدلاً في ذلك كل جهده لإظهار الوجود العربي، إذ "نقل بذلك شعر الصراع من صورة الفرد إلى صورة الجماعة، فقد كان يمدح سيف الدولة من غير شك، لكنه لم يكن يصور سيف الدولة وحده، وإنما يصور معه نفسه وجماعة المسلمين المجاهدين" (عبدالرحمن، ن.

1977: 337) في ظل دولة إسلامية مفككة متهالكة، لا يُعرَف فيها الخليفة إلا من خلال دعاء الأئمة له يوم الجمعة.

المراجع

1. إبراهيم عبد الستار(2002): الحكمة الضائعة (الإبداع والاضطراب النفسي والمجتمع) (مجلة عالم المعرفة. العدد 280، إبريل) الكويت،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
2. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم 711هـ (1956): لسان العرب ، ط1، بيروت،/لبنان، دار المعارف.
3. أبو الرضا، سعد (1981): الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، ط1، الرياض /السعودية: مكتبة المعارف.
4. مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري 204هـ -261هـ (2005) صحيح مسلم، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، بيروت.
5. المتنبّي،أبو الطيب،أحمد بن الحسن(1938)ديوان المتنبّي،ط2، تحقيق: عبدالرحمن البرقوقي، القاهرة/مصر، دار السعادة .
6. التونجي، محمد (2000): المتنبّي مالى الدنيا وشاغل الناس، ط1، جدة/السعودية، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
7. حسين، طه (2014): مع المتنبّي، .. عمان/ الأردن، مطبعة السفير، منشورات وزارة الثقافة الأردنية
8. خليف، يوسف(د.ت): في الشعر العباسي، ط1، القاهرة/مصر، مكتبة غريب .
9. سلامة، يسرى(1995): الحكمة في شعر المتنبّي، ط1 ، الإسكندرية: مصر، دار المعرفة الجامعية.
10. شاكر، محمود محمد (1987): المتنبّي، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، جدة، دار المدني.
11. شيخ أمين، بكري (2000) : المتنبّي وصراعاته، ط1 ، جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع،
12. عبدالرحمن، نصرت (1977): شعر الصراع مع الروم في العصر العباسي، عمان، مكتبة الأقصى.

13. عثمان، سهيل ومنير كنعان(1969): المحصول الفكري للمتنبي، ط1، بيروت/لبنان، دار الإرشاد .
14. العقاد، عباس محمود(د.ت): أبو الطيب المتنبي، حياته وشعره ، ط1، بيروت: لبنان، المكتبة الحديثة
15. غوادرة، فيصل (2005): التمرد في شعر العصر العباسي الأول، عمان، جبهة للنشر والتوزيع.
16. القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق:(390- 465)، (2012) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، عمان، منشورات وزارة الثقافة الأردنية..
17. الكعبي، المنجي (1992): المتنبي العظمة والطموح في شعره، ط1، تونس، تونس، مطبعة الاتحاد العام.
18. محاسني، زكي (1956): المتنبي، ط1، بيروت، لبنان، دار المعارف.
19. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ، ط1، بيروت/لبنان.
20. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون(2009): مقدمة ابن خلدون، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، عمان، مطبعة السفير.
21. محمد، محمد حسين، (1981) المتنبي والقرامطة، ط1، جدة، دار الرفاعي للنشر والتوزيع.

هوامش

1 - أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي الكندي، وجدته لأمه همدانية النسب، ولد بالكوفة، سنة ثلاث وثلاثمائة من الهجرة وأبو الطيب كنيته والمتنبي لقبه، قيل أنه ادعى النبوة، عاش في وطنه العراق ثمانية عشر عاماً، سافر بعدها إلى الشام طاوياً حواضرها حتى استقر مقامه في بلاط سيف الدولة الحمداني، فخلده بشعره ومدائحه، اختلف معه لعدم إنصافه مع ابن خالوية، فهام على وجهه قاصداً كافور الإخشيدي، ما لبث أن مل مصاحبته فعاد إلى الشام ثم العراق، وهو من الشعراء الفرسان، قتل في العراق ما بين بغداد وواسط في الثامن والعشرين من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة من الهجرة.

Abstract

Revolutionist manifestations in Al-mutanbi poetry

This study aims at investigating the revolutionist manifestations in Al-mutanbi's poetry and its social, religious, political and real features and its motives. It also investigate the psychology of Al-mutanbi and the reasons of his arrogance and the bright sides that led to this revolution.